جِرَاحُ الكَلَامِ

"التنابز بالألقاب كمدخل للوصم الاجتماعي"

بقلم: الأستاذ الدكتور عباس علي شلال/ مدير مركز الفيض العلمي
لاستطلاع الرأي والدراسات المجتمعية

00964- 7710122232 Alfaidcenter2011@gmail.com العراق - بغداد - الكرادة

الكلمات في ظاهرها مجرد أصوات، لكنها تحمل طاقة هائلة على مستوى النفوس، و"الجراح غير المرئي" كثيرًا ما يكون أشد ألمًا من الجراح الجسدية، ما يُقال يمكن أن يشكل حدودًا نفسية لا تُرى، لكن يُحكم عليها بقسوة داخل الذات.

القرآن الكريم يحذر من التنابز بالألقاب في آية صريحة، ويُعد هذا المنع جزءًا من منظومة القيم التي تحث على الاحترام المتبادل بين الناس "وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ ۖ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ" (الحجرات: 11).

وتؤكد السير الخالدة كيف كان الناس يتلقون الألقاب التي قد لا يحبونها، فجاءت الآية لتوقف هذا السلوك وتحمي كرامة الإنسان، فيقول الإمام الصادق عليه السلام "المؤمن لا يعيّر، ولا يسبّ، ولا يلعن، ولا يتنابز بالألقاب."

وهذا يؤكد أن التنابز هو ليس فقط تصرف اجتماعي خاطئ، بل خيانة للأخلاق الإيمانية التي تدعو الى الاحترام والتراحم، ويمكننا ربط هذا بتعاليم أديان أخرى مثل المسيحية واليهودية التي تؤيد "محبة القريب" واحترام كرامة الإنسان.

أثر الكلمات

الكلمة ليست مجرد صوت يمرّ، بل بناء للنفس والهُوية، وتجربة التنابز تترك أثرًا نفسيًا عميقًا على الفرد، لاسيما في مرحلة الطفولة والمراهقة التي تتشكل فيها الهُوية كما يشار الى ذلك في الدراسات النفسية التقليدية، ومفهوم "الهُوية المستوعبة" يصف كيف يتبنى الفرد صورة المجتمع السلبية عنه، وعلى سبيل المثال، الطفل الذي يُنعت بـ"غبي" قد يقلل من محاولاته، لأن صورته الذاتية تصبح محكومة بهذه التسمية، والبنت التي تُنعت بـ"عانس" قد تبدأ بالشك في قيمتها الذاتية والاجتماعية، كذلك الشاب الذي يُنعت بـ"فاشل" قد يضعف طموحه.

والوصمة الاجتماعية تؤدي إلى ارتدادات عكسية كثيرة منها تقليل فرص التعليم والعمل، وتقليل التواصل الاجتماعي وزيادة العزلة، فضلا عن الإصابة ببعض المشكلات والاضطرابات النفسية كالقلق والاكتئاب، ولهذا السبب يمكن أن نشير إلى أن التنابز بالألقاب هو أكثر من مجرد كلمات، بل هو آلية تدمير اجتماعي ونفسي.

كانت (ن.م.س) طفلة يتيمة الأبوين وخجولة، تحب الرسم والحكايات، لكن جسدها الممتلئ جعلها عرضة للتنابز في المدرسة، وقد أطلقوا عليها لقب السمينة، وتلقفته الألسُن الصغيرة والعيون المستهزئة، وحتى بعض المعلمات لم تكن تخلو تعليقاتهن من التلميح الجارح.

كانت تسير في الممرات ورأسها منخفض، وكلما ضحك أحد خلفها، كانت تظن أن ضحكته عنها، وبدأت ترفض المشاركة في النشاطات، وتتهرب من الصور الجماعية، وتغيب عن المدرسة دون سبب، وشيئًا فشيئًا انكمشت في ذاتها، درجاتها انخفضت، ووجهها فقد إشراقه، وصوتها صار همسًا، لم يفهم أحد أنها لا تُعاني من الوزن الزائد، بل من نقص في الاحترام والاهتمام.

00964- 7710122232 Alfaidcenter2011@gmail.com العراق - بغداد - الكرادة

مع مرور الوقت، تحوّل الحزن إلى اكتئاب، والاكتئاب إلى عزلة، والعزلة إلى انهيار نفسي، فتركت المدرسة تمامًا وهي في سن الرابعة عشرة، وبدأت تظهر عليها أعراض اضطراب حاد في المزاج والسلوك، ولم تتلقَ علاجًا مناسبًا، ولم تجد من يحتضن هشاشتها.

وفي الأيام الحالية لا أحد يعرف اسمها، تُرى أحيانًا عند كَراجات السيارات، أو تتنقل بين الأزقة في الحي الصناعي، ملامحها ضائعة، نظراتها شاردة، تتحدث مع نفسها بلغة لا يفهمها أحد.

لم تكن مشكلتها في وزنها، بل في لقبٍ جرحها حتى عمق الذات، ووصمةٍ دفعتها تدريجيًا خارج أسوار العالم.

التنابز بالألقاب كأداة لضبط اجتماعي

التنابز بالألقاب في المجتمعات التقليدية له وظيفة مزدوجة، فهو من جهة سلاح سُخرية، ومن جهة أخرى أداة للتحكم الاجتماعي يمكن أن يُستخدم "اللقب" كوسيلة للضغط على الفرد للالتزام بالمعايير المجتمعية.

يستخدم المدرسون والزملاء في البيئات التعليمية ألقابًا لتصنيف الطلبة أو تأنيبهم، وهو ما قد يؤدي إلى بيئة تعليمية سامة تعيق التعلم.

وقد يتحول التنابز في الأسرة إلى نزاع نفسي داخلي، حيث يتحمل الطفل أو الفتى العبء الأكبر بسبب مقارنة مستمرة مع الآخرين أو انتقادات متكررة.

وفي الإعلام، تتجلى هذه الظاهرة بشكل أوسع من خلال التمثيلات النمطية التي تعزز التنابز وتعمّق الوصمات، مثل تصوير الأشخاص ذوي الإعاقة وبعض المرضى النفسيين كنماذج للسُخرية أو حتى خطرين، أو تنميط الفقراء وكبار السن وأهل القرى والأرياف بصور متعددة أبسطها السذاجة والسطحية والتخلف.

يرى علماء الاجتماع، وعلى رأسهم إرفينغ جوفمان (Goffman, 1963)، أن التنابز بالألقاب ليس مجرد سلوك فردي أو انحراف لغوي، بل هو أحد أبرز مظاهر "الوصمة الاجتماعية، وهو أسلوب تمييز خفي وفاعل يُستخدم لفرض التصنيفات الاجتماعية وترتيب الناس في مراتب غير متساوية.

وفق جوفمان، الوصمة هي "سمة" تُلصق بالفرد وتُحوّله في نظر المجتمع من إنسان كامل إلى كائن ناقص غير جدير بالقبول الكامل، والألقاب التنابزية تُعد وسيلة سهلة وفاعلة لتثبيت تلك "السمة" سلوكيًا ولغويًا، فعندما ينادى بـ"العانس"، أو "المعاق"، أو "الكسلان"، فإن المجتمع لا يكتفي بإطلاق توصيف سلبي، بل يُعيد صياغة صورة هذا الفرد في الوعي الجمعي، ويُؤطره ضمن هُوية مختزلة، تُبرر معاملته بطريقة دونية، ويسهل إقصاءه.

الكرامة الإنسانية واللغة

الكرامة ليست فقط في الأفعال، بل تبدأ من الكلمات، والاسم ليس مجرد تعريف، بل انعكاس لهُوية الإنسان وكرامته، فعندما نقول "مجنون" أو "عانس" أو "فاشل"، نحن لا نصف الواقع، بل نختصر الشخص في صفة واحدة تسلبه تعقيد وجوده وحقه في الاحترام.

يرى علماء النفس أن اللغة لا تعكس فقط واقع الإنسان، بل تُعيد تشكيله من الداخل، فالكلمات التي يسمعها

00964- 7710122232 Alfaidcenter2011@gmail.com العراق - بغداد - الكرادة

الفرد، لاسيما في مرحلتي الطفولة والمراهقة، تُصبح جزءًا من خطابه الداخلي، أي الصورة التي يُكوّنها عن نفسه ويتحدث بها مع ذاته، ويؤكد هذا المفهوم ما يُعرف بنظرية التحديد اللغوي للفكر التي تبناها كل من إدوارد سابير وبنجامين وورف، والتي ترى أن اللغة التي نتلقاها ونستخدمها تُحدد شكل إدراكنا للعالم... ولأنفسنا.

فعندما يُقال لطفل بشكل متكرر "أنت فاشل"، لا يتلقى ذلك كمعلومة خارجية فحسب، بل تتحول العبارة إلى عدسة نفسية ينظر من خلالها إلى ذاته وقدراته، وتبدأ الهُوية النفسية بالتشكّل وفق هذه العدسة المشوهة.

وعندما يُوصم الإنسان بلقب جارح، كـ"غبي"، "معاق"، "عانس"، "مجنون"... ويُكرَّر هذا اللقب باستمرار من قبل المحيط الاجتماعي، يتحول الأمر من وصم اجتماعي إلى وصم سيكولوجي ضمن التركيب والتكوين النفسي الداخلي، وهو ما يسميه علماء النفس بالوصم الذاتي أو الداخل Self-Stigma، يُعرّف "كورّيغن وواتسون" (Corrigan & Watson, 2002) الوصم الداخلي بأنه: "تبني الشخص للمعتقدات والصور السلبية التي يحملها المجتمع عنه، وتحوّله إلى ذاتٍ منقوصة في عينيه هو، لا في عيون الآخرين فقط".

وهذا الشكل من الوصم يؤدي إلى سلسلة من الآثار النفسية الخطيرة منها انخفاض احترام الذات، وضعف الكفاءة الذاتية، الميل إلى العزلة والانسحاب الاجتماعي، اضطرابات القلق والاكتئاب، فضلا عن الشعور بعدم الاستحقاق وفقدان الأمل.

كان (ع. ح. ك) طفلًا هادئًا وذكيًا، يعاني من إعاقة بدنية-حركية حادة في قدمه، لكنه لم يفقد حيويته، وكان يركض بعكاز خشبي ويلعب مع أقرانه، الى أن بدأوا ينادونه بلقب المعوق، وفي البداية ظنها مزحة، لكنها أصبحت اسمه الجديد، حتى داخل الصف الدراسي، فضحكات زملائه ونظرات الشفقة مع قليل من الاحتقار من معلميه جعلته ينسحب تدريجيًا، ثم ترك المدرسة بعد أن شعر أنه لا يُرى إلا من خلال عجزه.

مرت السنوات، وتحول الطفل المتفائل إلى شاب يجلس على رصيف الحي، يمد يده للمارة بخجل، كأنه يستجدي أكثر من المال... يستجدي اعترافًا بأنه إنسان.

لم تكن الإعاقة هي من كسرت علي، بل الكلمة، اللقب، والوصمة، أخذوا منه اسمه، ثم أخذوا حلمه، ثم تركوه يتيه في الشارع دون ملامح.

الكلمة أمانة ومسؤولية

الكلمة ليست لعبة، ولا مزاحًا بسيطًا، فقد تبقى أثارها في القلب لسنوات، وتؤدي إلى جروح نفسية عميقة، وآيات القرآن الكريم، وآثار السنة الشريفة، يدعون إلى تحكيم العقل والرحمة في الكلام، وتقدير الإنسان وكرامته.

فلنختار كلماتنا بعناية، فالكلمة أمانة بين أيدينا، إما أن تكون بلسمًا يشفي جراح الآخرين، أو سكينًا يجرحهم.

00964- 7710122232 Alfaidcenter2011@gmail.com العراق - بغداد - الكرادة

المصادر:

1.القرآن الكريم.

2.الكافي، ج2، باب من آذى المسلمين.

3.Goffman, E. (1963). Stigma: Notes on the Management of Spoiled Identity. Prentice-Hall.

4.Link, B. G., & Phelan, J. C. (2001). Conceptualizing stigma. Annual Review of Sociology, 27(1).

5.Mazziotta, A., et al. (2019). Media representations of mental illness: A systematic review. European Psychiatry, 56.

6.Fitzgerald, A., et al. (2016). Internalized stigma and its impact on recovery from mental illness. Psychiatric Rehabilitation Journal, 39(2).

00964- 7710122232 Alfaidcenter2011@gmail.com العراق - بغداد - الكرادة